توظيف الشرط
في بناء الخطاب القرآني من الجزء الثلاثين

م.م.نادية عبد الرضا علي
ديوان وزارة التعليم العالي
والبحث العلمي

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين،ميسر الامور، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين وشفيع المؤمنين،سيدنا **محمد** عليه أفضل الصلاة والتسليم، وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين الغرّ الميامين وصحبه المنتجبين.

أما بعد:

فإنّ القرآن الكريم خطاب الله العليّ القدير إلى أهل الأرض،أوحى به إلى أفضل خلقه،وأكمل رسله،بلاغا لهم،بلسان عربي مبين،أودعه من العقائد والعبادات،والأحكام وفنون العلوم وأصول الفضائل والعادات،ما به قِوام الملّة الكاملة والأمة الفاضلة والسعادة في الدنيا والآخرة،ليعلموا أنّ الله الأوحد،وأنّ محمداً المصطفى هو الأصفى،وأنّ القرآن هو الأفضل.لذلك وُسِمت اللفظة في القرآن الكريم،وتميّزت بأهمية بالغة؛ كونها تتمتع بتنوع دلالاتها في السياق القرآني، التي تتفاضل فيما بينها وتتمايز عما سواها في غير النصّ القرآني. لذا آثرنا أن تكون دراسة بحثنا في القرآن الكريم، لملاحظة التمايز الحاصل في أثناء تحليل ألفاظ القرآن الكريم. وهذا ما تذوقناه ولمسناه في بحثنا السابق الموسوم بـ(توظيف الشرط في مشاهد يوم القيامة من الجزء الثلاثين)،وارتأينا أن يكون مكملاً لبحثنا هذا الموسوم بـ(توظيف الشرط في بناء الخطاب القرآني من الجزء الثلاثين) ومتمماً له. والفارق بينهما أنّ الأوّل كان خاصاً بدراسة الآيات القرآنية، التي تصف مشاهد يوم القيامة حصراً، أمّا الثاني، فيعنى بدراسة ما تبقى من السور الكريمة الواردة ،التي وردت فيها أدوات الشرط. وقد آثرنا أن يكون بحثنا مخصصاً في الجزء الثلاثين من القرآن الكريم، لكثرة ورود أدوات الشرط في السور القرآنية، التي تضمّنها، فكانت مادة ثرية،أعانتنا على أخذ آياتها شواهد قرآنية لإغناء بحثنا بها، وتحليلها تحليلاً فنياً،وفقاً لأدوات الشرط الواردة فيها، لبيان أثر هذه الأدوات وإبراز أهميتها، وما يتصل بالأداة الشرطية من جملة فعل الشرط وجوابه ،وما يدخل ضمن إطار فعل الشرط وجوابه من صيغ أفعال وأسماء، وبيان سبب ورودها بصيغة معينة اسمية كانت أو فعلية، لإظهار تنوّع دلالات اللفظة القرآنية والتميز الحاصل فيها. ولم نكتف بهذا القدر،وإنما قمنا بدراسة رؤوس الآي، دراسة صوتية بما فيها الأجراس الصوتية للفظة، -اللفظة برمتها- الواردة في خطاب شاهدنا القرآني وتحليلها تحليلاً فنياً، آخذين بالنظرعدم الاعتماد على القول السائد والمعروف،المتمثل بالمجانسة للفواصل القرآنية فحسب، وهذا ما سنلحظه في تحليل الآيات الكريمة. فلم نقف في دراستنا عند أدوات الشرط ، وإنما كانت شاملة ،لإظهار الصورة الفنية وإبراز جمالياتها، بتحليل شامل ووافٍ للشاهد القرآني الواردة فيه أداة الشرط.والأمانة تحتم علينا أن نقدم خالص شكرنا وتقديرنا إلى روح أستاذي المرحوم الدكتور حيدر لازم،حباه الله بنعمته وفضله عليه وأسكنه فسيح جناته وطيب ثراه، الذي أنار لنا فكرنا بنصائحه وإرشاده وتوجيهه،ولله الحمد في الأولى والآخرة وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وظائف الشرط في البنى الخطابية القرآنية

سورة عبس:

مجمل البنى الخطابية الواردة في هذه السورة،عتاب من يقدم الأغنياء والمترفين على الضعفاء والمساكين من المؤمنين، فيرفع أهل الدنيا ويضع أهل الآخرة. وشاهدنا القرآني يكمن في أداة الشرط (أما)،التي وُظِّفت لبيان وتفصيل دقيق لحال المترفين،وما يقابلهم من حال الفقراء المساكين، إذ قال الله سبحانه:(**أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى۝ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى۝ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى۝ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى۝ وَهُوَ يَخْشَى۝ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى۝**) (1). ويظهر العتاب جليا في بيان الباري موقف الرسول عليه الصلاة والسلام في الآيات الثلاث في قوله سبحانه:(**فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى۝وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى۝**) وفي:(**فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى**)، إذ أتت الألفاظ على وزن (تفعَّل)،التي صوّرت الحال،كيف كان التصدي والتزكي والتلهي على وجه الكثرة والمبالغة، إلى جانب إنها تبين أنّ الحديث كان شديد العتاب والتوبيخ،ولا إيناس فيه قطعا[2]. ولا ننسى ورود هذه الأفعال في السياق القرآني محذوفة التاء، إذ أن أصلها (تتصدى– تتزكى– تتلهى)؛ لبيان أنّ الله سبحانه لم ينه صلى الله عليه وآله وسلم عن هذا الفعل إلا في هذا الوقت، فلا تكون معصية منه إلاّ بعده، وأما قبل النهي فلا. وكيف يكون كذلك، والله قد عظم خلقه صلى الله عليه وآله سلم إذ قال:(**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**) سورة القلم آية (3) وأطلق القول والخلق ملكة لا تتخلف عن الفعل المناسب لها[4].

سورة الفجر:

استهل الباري سبحانه سورة الفجر بالقسم بأزمان تتضمن أفعالاً عظيمة، تعكس عبوديتها الخالصة لله - جل وعلا- وتثبت قدرة الباري ورحمته للعالمين أجمعين، إذ قال سبحانه: (**وَالْفَجْرِ۝وَلَيَالٍ عَشْرٍ۝وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ۝وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ**) (5)، فكان من ضمن هذه الأزمان موطن شاهدنا في الليل ومضيه. وفيه وظفت أداة الشرط (إذا)، ونحن نعلم أنّ هذه الأداة تكون للشيء الواقع الحدوث حتماً ،وللأمر اليقيني المعلوم. أي أنّ رحمة الباري الدائمة، تكون بمضي الليل وانجلاء النهار، وهذا أمر يقيني وشيء معلوم، يلاحظه البشر، ولكن أنـّى لهم الذكرى. فقال:(**وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ**) آية (4) إلاّ أن هذه الأداة ،خرجت إلى معنى القسم[6]، إذ أقسم سبحانه بالليل إذا يمضي، لبيان منزلة المقسم به، وما تتمتع به من الكرامة والعظمة.وقد أشرنا بداية إلى أن ما أقسم به الباري هو لإثبات عبوديتها الخالصة لله سبحانه. ثم عرّج إلى بيان حال الإنسان في صورتي التنعيم والإمساك ،وتصوير قصر تفكيرهم وتدبرهم – على لسانهم - ومدى تمسكهم بالحياة الدنيا الزائلة وشغفهم بها. ويظهر عندنا هنا توظيف أداة شرط ثانية ألا وهي الأداة (إمّا)، التي جاءت مبينة مفصلة لنعم الله على البشر، بغية ابتلائهم واختبارهم .ويظهر جلياً في الأداة الشرطية بيان لجواب الإنسان بالإكرام والإهانة، حيث قال سبحانه:(**فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ۝وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ۝**)(7)، فأحسنت في تصوير دلالات فكر الإنسان المتدني القاصر، وأبرزت في تفصيل الباري بين نعمه وإكرامه للبشر، وبين قتره عليه. فبها – أي الأداة – صح التوازن والترتيب والتفصيل. ونلحظ أمراً مهماً يجب الالتفات إليه، هو في حذف الضمائر الواضحة بشكل جلي في عموم السورة. ونأخذ على وجه الخصوص مواطن شواهدنا القرآنية،من ذلك قوله:(**وَاللَّيْلِ إِذَا**

يَسْرِ) و(**فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ**) و(**فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ**) بحذف (الياء) في جميع الأفعال، وقدعللّ بعض المفسرين ذلك مجانسة للفواصل القرآنية الأخرى[8]. وبعضهم من وصف حذف الياء بكونه أعجب[9]ففي قوله تعالى:(**وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ**) حُذفت ياء الفعل، وكان الأمر نفسه في الآيات التي سبقتها والتي تلتها. ونرى بداية أنّ توظيف الفعل (يسر) في السياق القرآني، لدلالة ديمومة الحياة والتجدد المستمر في تبدد ظلمة الليل وظهور النهار، إذ لو دام الليل لزالت الحياة. وكان في حذف الضمير (الياء) من الفعل والاجتزاء بالكسرة ،قد أفاد شحنات دالة على معنى الشدة والغضب على الإنسان المتبقي على الحياة الدنيا، وفيه أيضاً إشارة إلى ذم التعلق بها.

أما الحكمة في حذف (الياء) في قولي الله سبحانه:(**فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ**) و(**فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ**) وتوظيف الفعل في السياق القرآني – والله أعلم – يكمن في بيان إنكار الإنسان لنعم الله في حالتي الإنعام والإمساك بشكل متكرر ومتجدد. فأعطى هذا الفعل دلالات قصر فكر الإنسان المستمر والدائم، وقلة تدبيره فيما إذا أنعم عليه الباري تارة أو أمسك عليه تارة أخرى. وتثبت في الوقت نفسه غضب الباري عليه، لتمسكه بالحياة الدنيا الفانية. إذ وصف الباري لسان حال الإنسان إذا تفضل عليه الباري وأكرمه، فيقول الإنسان عندها: إنه أكرمه وإذا لم يكرمه وأقتر عليه فيوصف حاله بالإهابة. وكيف يكون الحال كذلك والإهانة لا تقع إلا ّ عقوبة[10]. فما الحياة الدنيا إلا امتحان إلهي؛ إذ محال أنْ تصدر من الباري إهانة البشر بعقوبته وإذلاله في حال التضييق عليه ،وإنّما هو اختبار وابتلاء في الشدة والرخاء.

سورة الشمس:

استهل الباري سبحانه سورة الشمس أيضاً ـ كما في السور السابقة ـ القسم بمرئيات يدركها المخلوق ببصره وعقله، إذ أقسم عزّ وجلّ بشيء من العالم العلوي والعالم السفلي وبما هو آلة التفكر في ذلك، وهو النفس، إذ قال:(**وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا۝وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا۝وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا۝وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا**) (11). ففي هذه الآيات الكريمة زُجّت (إذا) الشرطية الظرفية، كما نلاحظ بأجمل تنسيق وترتيب وتعادل ربّانيّ، فرسمت (إذا) في هذه البنى الخطابية القصيرة التعاقب المتسلسل والمترتب. إذ أقسم الخالق بالشمس وبانبساط النهار (الضحى)، ثم أعقب قسمه بالقمر، الذي يكون مجيئه تبعاً بعد ظهور الشمس في كل وقت على اختلاف ظهوره، إن كان (هلالاً أم بدراً كاملاً) في أيام الشهر. فظهر الإتباع والتسلسل في القسم بالشمس أولاً من ثم بالقمر؛ كون القمر يقتبس نوره من الشمس؛ إذ كلّ ضياءٍ نور، وليس كلّ نورٍ ضياء[12]. وقد قال الله في غير موضع:(**هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً**) (13)، فخرجت (إذا) إلى معنى القسم[14]، لإلفات النظر والعقل إلى حسيات مدركة لا نقاش فيها. وكان في توظيف الأداة (إذا) أحسن تصوير وإدراك لهذه الأجسام النيّرة في تجسيد صورة ذهنية تعاقبية ومتسلسلة. واستأنف الله سبحانه القسم بالنهار في حال إنجلاء،وظهور الشمس وانبساطها على وجه سطح الأرض،من ثم أقسم بالليل في حال انتشاره وتغطيته للأرض. فبدى لنا دور (إذا) في إبراز التقابل الجاري بين كلّ من الشمس والقمر في وقتي النهار والليل والتفصيل المتسلسل الواضح ،زيادة على ذلك إنّ ورود النسق التعبيري في القسم بالأفعال الماضية وبالفعل المضارع في (إذا يغشاها) قد صوّرت دلالات حركية دائمة للأحوال الكونية. فبالأفعال الدالة على التجدد في الحدث ،أعطت شحنات دلالية على قدرة الخالق ودقته المتناهية فيما خلقه من أحوال كونية، إذ تبرز فيها الحركة والتغيير في النهار والليل، وتكمن هذه الحركة في تعاقب ظهور الشمس والقمر، فبانبساط ضوء الشمس على وجه الأرض وانجلائه ،تظهر كذلك حركة ظهور القمر وغشيانه في النصف الآخر من الأرض، وهكذا دواليك إلى ما شاء الله سبحانه. وقد علل السيد الطباطبائي التعبير عن غشيان الليل بالمضارع للدلالة على الحال "ليكون فيها إيماء إلى غشيان الفجور الأرض في الزمن الحاضر، الذي هو أوائل ظهور الدعوة الإسلامية"[15].ونلاحظ في كلّ ذلك تناغماً وتوازناً إيقاعياً ثابتاً ومتكرراً، ابتداء من بداية السورة الكريمة حتى نهايتها. ويتمثّل هذا الإيقاع في الهاء والألف المطلقة، فالهاء أكسبت المعنى صفة الانفتاح والإصمات، وزادت في قوته دلالة ،إلى جانب إطلاق الألف الذي كوّن ظاهرة صوتية مؤثرة في الأعماق، تدفع بالإنسان إلى التأمل ولو لبرهة إلى عظمة الباري في ما أقسم به - ولاسيما - الشمس والقمر. وتبدو العظمة جلية للبشرية جمعاء في إنجلاء النهار وتبدد الظلمة، ففيهما الرحمة والسكينة والمعاش والطمأنينة. وفي إطلاق الألف إطلاق الفكر والعقل إلى مد النظر عالياً إلى الكواكب السماوية، كيف صُنعت وكيف دُبرت من لدن خالق رؤوف رحيم لبشر هلوع جزوع.

سورة الليل:

كرر سبحانه ذكر الليل والنهار في هذه السورة كما في سابقتها في صورة حركية، متمثلة في تعاقب الليل والنهار. فأقسم الباري سبحانه بكلّ منهما، إذ قال عزّ من قائل:(**وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى۝وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى**)(16)، ففي قسمه هذا "إنما يجلو معاني من الهدى والحق أو الضلال والباطل بماديات من النور والظلمة في مختلف درجاتهما"[17]. وفيه كما نرى وظّفت الأداة الشرطية (إذا) في السياق القرآني إلاّ أنها خرجت إلى معنى القسم لبيان عظم قدرهما على مواقع حكمته[18]، وكان دورها يكمن في إيضاح صورة حركية تعاقبية لكل من الليل والنهار ومتسلسلة بشكل سرمدي إلى ما شاء الله كما أسلفنا سابقاً في سورة الشمس، واتضحت هذه الصورة الحركية في مجيء صيغتي الفعل المضارع في (يغشى) والفعل الماضي في (تجلى). ففي (يغشى) لأنه يغشى الليل شيئاً فشيئاً، أما النهار وظهوره فيكون في وهلة واحدة بطلوع الشمس وانبساطها على وجه الأرض، فكان سياق التعبير القرآني بالأفعال عكس دلالات حركية مفسرة للقدرة الإلهية الكونية.

سورة الضحى:

أقسم الله تعالى في هذه السورة بظاهرتين كونيتين متعاقبتين في ظهورهما، إذ أقسم بالضحى أي بانبساط النهار، وبالليل في حال سكونه وغشيانه على وجه سطح الأرض، فقال سبحانه:(**وَالضُّحَى۝وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى۝مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى۝**) (19). وفي الآية الثانية يكمن موطن شاهدنا القرآني في توظيف أداة الشرط (إذا) ،التي خرجت كذلك إلى معنى القسم لغاية أسمى في إثبات عظمة ما أقسم به في هاتين الآيتين ، الدالتين على ربوبيته وحكمته ورحمته. وبرز دور (إذا) في أنها أتت ،لتكون احتجاجية وتفسيرية في الوقت نفسه، فالله تعالى "أقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجاجه، وأيضاً فإنّ فالق ظلمة الليل عن ضوء النهار، هو الذي فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة، فهذان للحسّ، وهذان للعقل. وإنّ رحمته سبحانه وتعالى قد اقتضت أن لا يترك عباده في ظلمة الليل سرمداً بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعايشهم ،فلا يليق به أن يتركهم في ظلمة الجهل والغيّ، بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم"[20]. وفي هذا القسم أيضا إبعاد الشك ودفع التوهم ممن قال:إن الله سبحانه قد ودّع محمداً. فكما في تعاقب النهار والليل، وفي زيادة ساعتهما ونقصانهما حكمة،

كذلك الحال نفسه في إنزال الوحي تارة وفي حبسه تارة أخرى لحكمة إلهية أيضاً. فطابق الله سبحانه بين هذين الحالين للإيضاح والإثبات[21].

وفي انتقالنا إلى موضع آخر من السورة نفسها، قال عزّ من قائل:(**فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ۝وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ۝وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ۝**)(22)، نرى توظيف الأداة الشرطية (أمّا) في هذه الآيات الثلاث، فأعطت – أي الأداة – تفصيلاً كاملاً لما يريد الله فيه من الرسول (صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم) في النهي عنه والابتعاد منه، وكانت أكثر توضيحاً لأمور مهمة ،متمثلة باليتم وسائل المعروف والعلم، وفي الحديث عمّا أنعم الله له في الدين والدنيا ، وهذا - وإن كان الكلام خاصاً لكن أريد به العموم أي لعامة البشر لا شخص النبي صلوات الله عليه - فأكدت (أمّا)، إلى جانب تكرار (لا) الناهية هذه المعاني ،وبانت بل وأبرزت في أهميتها- لاسيما - عند الباري سبحانه، وآثارها المترتبة في الرحمة، التي ستصب في قلوب المؤمنين في حال الإلتفات إلى هذه الأمور المهمة في الحياة الدنيا، والمكملة لهم في أخراهم بالشفاعة والطمأنينة والخلود في دار الجنة آمنين.ونلحظ أمراً هاماً في تكرار أداة الشرط (أمّا) التفصيلية ثلاث مرات في المواضع الثلاث ويكمن سر ذلك؛ كونها وقعت في مقابلة آيات ثلاث أيضاً[23] في قول الباري سبحانه:(**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى۝وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى۝وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى**)(24) ،وفي هذه المواضع الثلاث نجد التعبير القرآني، قد ورد بصيغة الأفعال ،وذلك في (تقهر– تنهر– فحدث)؛ كون هذه الأمور يتكرر حدوثها ،ويتجدد استمرارها. أما صيغة الفعل (فحدِّث) فكانت مغايرة في الفاصلة القرآنية، إذ جاءت على وزن (فعِّل) من باب المبالغة والتكثير في القيام بالفعل. أي المبالغة في الحديث عن النعم التي أنعمها الله به والإكثار من الحديث عنها، لما لها من أهمية بالغة ،تدخل من باب الشكر لهذه النعم كذلك. وقد وصف العلوي اليمني السياق القرآني في:(**فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ۝وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ۝**) بأنه "أعدل الأسجاع قواماً، وأجودها اتساقاً وأعلاها مكانة وأوضحها بياناً"[25].ونلمس في هذه الأفعال توظيف المقاطع المقفلة في سياق الوصف الدقيق، ويقصد بهذه المقاطع هو"المقطع الذي ينتهي بصامت ساكن"[26]، أي بحرف صحيح ساكن. فكانت هذه المقاطع معبرة عن معنى الجد الفاصل الذي لا مجال فيه للتهاون[27]، إذ أحدثت توازناً إيقاعياً مؤثراً. فبالتوازن الإيقاعي الوارد في كل صيغة فعلية من هذه المقاطع المقفلة المتمثل في التزام رؤوس الآي بحرف الراء وهو صوت ترددي تكراري جهور كان له أثر في تأكيد معنى النهي وأبان في أهميته، إلى جانب تكرار حرف الهاء في كل من الآيتين الأول الذي يحمل من صفاته الهمس والرخاوة خفف الوقع في الكلام المخاطب لشخص النبي محمد (عليه الصلاة والسلام وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين). وتكرار التاء في كل من الفعلين (تنهر– تقهر) ووجود القاف، فهما من الأصوات الشديدة الانفجارية اللذين يحدثان صوتاً مسموعاً يلي الصوت المنطوق، إلى جانب ذلك كله تشديد صوت الدال وهو من الحروف القوية يحمل صفات الشدة والجهر والقلقلة في الفعل (فحدِّث). فبمجموع هذه الأجراس الصوتية الرنانة الواردة في المقاطع المقفلة أسهمت في التعبير عن المعنى الجد وكان لها التأثير القوي في إيصال المعنى الدلالي.

سورة العلق:

في سياق قرآني جديد نرى إبداعاً يذهل العقل والفكر في فكرة الناهي عن الصلاة، إذ قال جلّت قدرته:(**أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى۝ عَبْداً إِذَا صَلَّى۝أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى۝أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى۝ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى۝أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى۝**)(28). نلمس تعبيراً قرآنياً تصاعدت فيه نبرات الشدة والغرابة في مضمون الألفاظ وتمخضت عنها معاني الغضب والتعجب والتوبيخ والإنذار من ثم الوعيد. معان متدرجة متعاقبة شيئاً فشيئاً أخذت بالظهور في الآية تلو الآية، هذه المعاني التي تبلورت في أسلوبي الاستفهام والشرط اللذين أخذا بالتكرار على مدار آيات متسلسلة لا انقطاع فيها ولا وقوف.وقد اختلفت أذواق المفسرين في مفاعيل (رأيت) الواردة في الآيات، كذلك الحال نفسه اختلفت آراؤهم أين يكمن جواب أداة الشرط (أنْ) التي زُجّت في ثنايا هذه الآيات الكريمة. وإن المتمعن في درر هذه الآيات الكريمة ليدرك بحسه فنية التعبير في السياق القرآني الذي زُجّت فيه الأداة الشرطية في الآية بعد الآية والتي بها وبالاستفهام المتكرر برز إيقاعاً موسيقياً قائماً على أساس التعجب والتشنيع والتوبيخ من ثم الإنذار والوعيد. فهذا ما نتذوقه من هذه الأداة الشرطية المدمجة مع اسلوب الاستفهام. فأعطتا شحنات دلالية مؤثرة في القارئ نقلت بالأداة من توظيفها في المشكوك والمظنون إلى دلالة التيقن لوقوع أمر النهي من أبي جهل اللعين.فأول ما نلمسه في هذه الآيات الكريمة تقييد النهي بالظرف في قوله تعالى:(**أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى۝عَبْداً إِذَا صَلَّى۝**) إشعاراً بأن النهي عن الصلاة في حال التلبس بها من ثم نلمس في الآيات المتعاقبة الفصل في الجمل اعتناء بأمر التشنيع والوعيد، فبرز بهذا الفصل في الجمل القصدية والترقي في التشنيع. أي التدرج في إبراز التشنيع، على مدار الآيات الثلاث. إذ شنع تعالى وأوعد على النهي عن الصلاة بدون تعرض لحال الناهي الزعمي أو الحقيقي، ثم شنع وأوعد جل وعلا عليه مع التعرض لحاله الزعمي، ثم شنع وأوعد عليه مع التعرض لحاله الحقيقي[29]. فبدت لنا بالتدرج معاني التشنيع والتعجب والوعيد المترقب والحاصل لا محالةوقد قيل في أنّ الشرط في قوله تعالى:(**إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى**) تكرار للشرط الأول؛ لأن معنى الأول أنه ليس على الهدى. والنكتة في إدخال حرف الشرط في (**إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى**)؛ لإرخاء العنان صورة والتهكم حقيقة، إذ لا يكون في النهي عن عبادة الله والأمر بعبادة الأصنام هدى[30]. وعدّ الزمخشري جواب الشرط (**عَبْداً إِذَا صَلَّى**) محذوفاً تقديره الآية التي بعدها، وإنما حذف لدلالة ذكره في جواب الشرط الثاني أي الآية التي تلتها مباشرة. وعدّ قوله تعالى:(**أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى**) جواباً للشرط الذي سبقه. في حين رفض أبو حيان الأندلسي ما ذهب إليه الزمخشري في تجويزه وقوع جملة الاستفهام جواباً للشرط بغير فاء[31].

سورة النصر:

استهلت السورة الكريمة بإحدى أدوات الشرط ،ألا وهي (إذا) الشرطية في خطاب من العزيز الكريم لحبيبه المصطفى - صلى الله عليه وآله وسلم - إذ قال سبحانه:(**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ۝وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً۝فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً۝**) (32)، فكان في هذا الخطاب القرآني إلفات الذهن والفكر إلى أمر سيتحقق عن قريب، والمتمثل في فتح مكة، وإلى أن وعداً حاصلاً لمجيئه في المستقبل القريب. فكانت (إذا) الشرطية للاستقبال إلى جانب ذلك إنها حققت معنى في كونها تصويرية توقيتية لمستقبل قريب حاصل. وحققت في الوقت نفسه الثبات على معنى السرمدية في أنها ظلت للاستقبال إلى ما شاء الله سبحانه وإن كانت السورة تخاطب نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام. وأجمل ما قيل في بيان دور الشرط وأهميته في هذه الآيات الكريمة في معرض الحديث عن سبب وصف النصر بالمجاز في الخطاب القرآني لأسباب منها: إن الأمور مربوطة بأوقاتها وأنه سبحانه قدر لحدوث كل حادث أسباباً معينة وأوقاتاً مقدرة يستحيل فيها التقدم والتأخر أو التغير والتبدل فإذا حضر ذلك

الوقت جاء ذلك الزمان وحضر معه ذلك الأثر. وثانيها: إن اللفظ دل على أن النصر كان كالمشتاق إلى محمد (صلى الله عليه وعلى آله وسلم)؛ كون النصر مستحقاً له بحكم الوعد فالمقتضي كان موجوداً إلاّ أن تخلف الأثر كان لفقدان الشرط فكان كالثقيل المعلق. وثالثها: شبه وعد الله ورأفته بعبده بينبوع الجود والرحمة، فبحار رحمة الله ونصرته آخذة بالسيلان منذ الأزل. فكأنه قيل: يا محمد قرب وصولها إليك فإذا جاءتك أمواج هذا البحر فاشتغل بالتسبيح والتحميد والاستغفار[33]. أي أن كل ما وعد به الباري لنبيه مشروط فبانت أهمية أداة الشرط واتضح دورها. على الرغم من أن بعضاً من المفسرين اختلفت آراؤهم في كون (إذا) شرطية أو غير شرطية. فمنهم من عدّها بمعنى (إذ) التي للماضي وأن مجيئها بهذا المعنى كثير في القرآن الكريم[34]، ومنهم من عدّها شرطية تقتضي للاستقبال؛ لأنه لا يقال فيما وقع: إذا جاء وإذا وقع. لذا عدّت آية **(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)** من جملة المعجزات من حيث أنه خبر وجد مخبره بعد حين مطابقاً له، والإخبار عن الغيب معجز[35].من ثم أمر الباري سبحانه نبيه المصطفى بالتسبيح – وبه يكمن جواب إذا الشرطية– والحمد من ثم الاستغفار. فأظهر جواب (إذا) ما أُمر به النبي وما يتوجب عليه فعله بصورة مترتبة في الأهمية الأهم فالمهم، إذ أمره أن ينزه عما لا يليق به من صفات النقص وأن يثنِ على الله تعالى بصفات الجلال تحميداً له على صفات الإكرام ليكون ذلك شكراً على النصر والفتح وظهور الإسلام. فكان في تقديم التسبيح على الحمد ثم الحمد على الاستغفار على طريق النزول من الخالق إلى الخلق[36]. وفي مجيء لفظة (التواب) بعقب الاستغفار ترجيحة عظيمة للمستغفرين[37] ويلمح المتمعن في قراءة سورة النصر انعكاساً جميلاً يطغي فيه جو الطمأنينة ورأفة الباري ورحمته المتكون من الأجراس الصوتية ولاسيما المتكررة منها والغالبة في جو السورة القرآنية المتمثلة بحروف السين والواو والفاء، والتي تتفق بمجموعها في (صفات الانفتاح والهمس والرخاوة)، إذ إنها حققت توازناً إيقاعياً يحاكي النفس البشرية برأفة الباري ورحمته ووعده المتحقق لا محالة في فتح مكة وتوافد المؤمنون من كل حدب وصوب للحج إلى بيت الله الحرام وإحقاق الحق في دخول الناس في دين محمد خاتم النبيين والإيمان والتوحيد بلا إله إلا الله.

الخاتمة:

ختاماً لبحثنا هذا نؤكد ما ذكرناه في بحثنا السابق أن أساليب الشرط تنهض بوظائف لا تقل أهميتها عما عداها من الظواهر الاسلوبية، إذ إن الشرط هيّأ للبنية النصية ميزات عديدة منها انسجام النسق وتعاقب الصورة. ولحظنا كذلك أن أدوات الشرط ولاسيما (إذا) و(أما) قد احتلتا مركز الصدارة في الجزء الثلاثين من القرآن الكريم، وغلبتا في الحضور على أدوات الشرط الأخرى. ولم تقف الأداة الشرطية عند كون (إذا) ظرفاً للاستقبال و(أما) تفصيلية وتأكيدية، وإنما أعطت دلالات فنية جديدة في البنى الخطابية القرآنية. فكانت تصويرية وتأكيدية للمعنى الذي أتت به في السياق القرآني، كذلك إنها حققت التوازن والترتيب والتفصيل في البنية الخطابية الواحدة، إلى جانب إنها حققت التعاقب والتسلسل في صورة حركية لكل من الليل والنهار في سورتي الشمس والليل، وأعطت دلالة السرمدية إلى جانب كونها للاستقبال. وأخيراً حققت الوظيفة الاحتجاجية (التفسيرية). وبذلك خرجت أدوات الشرط بمعان جديدة ودلالات فنية جديدة ولم تقف عند كونها أساليب إنشائية بحتة.

وأخيرا ...ندعوالله أن يجعل في هذا البحث نفعا لخدمة لغة القرآن الكريم .

الهوامش:

1. سورة عبس:5 – 10 .
2. ينظر: الميزان في تفسير القرآن :19/200.
3. سورة القلم : 4 .
4. ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن: 9/664، والميزان في تفسير القرآن: 20/204.
5. سورة الفجر : 1 – 4 .
6. ينظر: الكشاف: 4/249، والتسهيل لعلوم التنزيل: 4/197، وتفسير البحر المحيط: 8/464.
7. سورة الفجر : 15 – 16 .
8. ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/477، والأقسام في القرآن الكريم: 156.
9. ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن:30/217.
10. ينظر: معجم الفروق اللغوية: 32.
11. سورة الشمس : 1 – 4 .
12. ينظرمعجم الفروق اللغوية: 332 ، والمفردات في غريب القرآن: 75.
13. سورة يونس : 5 .
14. ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم: 30/141، وتفسير البحر المحيط: 8/472، والأقسام في القرآن الكريم: 166.
15. الميزان في تفسير القرآن: 30/297.
16. سورة الليل : 1 – 2 .
17. الإعجاز البياني للقرآن: 230.
18. ينظر: روح المعاني: 30/147، ومجمع البيان: 10/759، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: 9/166.
19. سورة الضحى : 1 – 3 .
20. التبيان في أقسام القرآن: 46، وينظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن: 1/346.
21. ينظر: روح المعاني: 30/154.
22. سورة الضحى :9 – 11 .
23. ينظر: أسرار التكرار في القرآن: 220.
24. سورة الضحى : 6 – 8 .
25. الطراز المتضمن لأسرار البلاغة: 410.
26. في اللسانيات ونحو النص: 164.
27. ينظر: جماليات التلوين الصوتي في القرآن الكريم: 172.

28. سورة العلق : 9 – 14 .
29. ينظر: روح المعاني: 30/184.
30. ينظر م.ن: 30/184.
31. ينظر: تفسير البحر المحيط: 8/489- 491، وروح المعاني: 30/185.
32. سورة النصر : 1 – 3 .
33. ينظر: التفسير الكبير: 32/152، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: 5/543، و إرشاد العقل السليم: 9/208.
34. ينظر: روح المعاني: 30/254.
35. ينظر: التفسير الكبير: 32/155، ومجمع البيان في تفسير القرآن:10/843.
36. ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 5/543.
37. ينظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن: 5/3.

المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم
2. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: للإمام أبي السعود محمد بن محمد العمادي ت951هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان – د.ت.
3. أسرار التكرار في القرآن: محمود بن حمزة بن نصر الكرماني، تحـ عبد القادر أحمد عطا،ط2، دار الاعتصام، القاهرة - 1396هـ .
4. الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق ، دراسة قرآنية لغوية بيانية، د.عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، دار المعارف بمصر - 1971م.
5. الأقسام في القرآن الكريم ، دراسة مبسطة حول الأقسام الواردة في القرآن الكريم ، المحقق جعفر السبحاني،قم - 1420هـ.
6. أنوار التنزيل وأسرار التأويل لناصر الدين عبد الله بن عمر ت685هـ للبيضاوي، ط1 ، دار الكتب العلمية، بيروت - 1988.
7. التبيان في أقسام القرآن لمحمد بن أبي بكر، أيوب الزرعي أبو عبد الله ت751 هـ، دار الفكر،بيروت – د. ت.
8. التسهيل لعلوم التنزيل للإمام أبي القاسم محمد بن أحمد بن جزي الكلبي ت741هـ، ضبطه وصححه وخرج آياته محمد سالم هاشم، مكتبة دار الباز عباس أحمد الباز مكة المكرمة.
9. تفسير البحر المحيط: محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، تحـ الشيخ عادل عبد الموجـــود،و الشيخ علي محمد معوض،ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت - 1422هـ– 2001م.
10. التفسير الكبير المسمى مفاتيح الغيب: للإمام فخر الدين الرازي ت606هـ، ط3، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت - 1405هـ– 1985م.
11. جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ت310هـ، قدم له الشيخ خليل الميس، ضبط وتوثيق وتخريج صدقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - 1415هـ – 1995م.
12. جماليات التلوين الصوتي في القرآن الكريم د. أسامة عبد العزيز جاب الله، دار ومكتبة الأسرار للطبع والنشر والتوزيع ، الأردن - 2008م.
13. الجواهر الحسان في تفسير القرآن للإمام عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف أبي زيد الثعالبي المالكي ت875 هـ ، ط1، تحـ الأستاذ الدكتور عبد الفتاح أبو سنة، دار إحياء التراث العربي مؤسسة التاريخ العربي بيروت - 1418هـ–1997م.
14. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لمحمود الألوسي أبو الفضل ت1270م، دار إحياء التراث العربي، بيروت – د.ت.
15. الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للسيد الإمام يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني، ط1،مراجعة وضبط وتدقيق محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان - 1415هـ – 1995م.
16. في اللسانيات ونحو النص للدكتور إبراهيم خليل، ط1 ، دار المسيرة للطباعة والنشر، عمان - 1427هـ ،2007م.
17. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ت 538هـ، الطبعة الأخيرة، مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر - 1385هـ –1966م .
18. مجمع البيان في تفسير القرآن لأبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي، ط8 ، مطبعة أمير ، قم – د.ت..
19. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحـ عبد السلام عبد الشافي محمد، ط1، دار الكتب العلمية ، لبنان - 1413هـ – 1993م.
20. معترك الأقران في إعجاز القرآن، لأبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي ت 911 هـ ضبطه وصححه وكتب فهارسه أحمد شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان - 1408هـ– 1988م.
21. معجم الفروق اللغوية الحاوي لكتاب أبي هلال العسكري وجزء من كتاب السيد نور الدين الجزائري، تحـ مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين،تنظيم الشيخ بيت الله بيات ومؤسسة النشر الإسلامي،ط1، قم - 1412هـ.
22. المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ت502هـ، تحـ محمد سيد كيلاني،طبعة مصورة،دار المعرفة ، بيروت – د.ت.
23. الميزان في تفسير القرآن للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة – د.ت.